طبقة (رجال الجمنازيوم) فى مصر فى العصر الرومانى
فى ضوء الوثائق البردية

بقلم / فاروق حافظ القاضـــــى

ثمة حقيقة مبدئية أكدتها الوثائق البردية منذ أمد بعيد ، وهى أن سياســـــة الرومان الاجتماعية فى مصر ارتكزت على مبدأ التمييز بين عناصر السكان وفئاتهم مـــــن حيث الحقوق والواجبات أو الامتيازات والاعباء ، وأن هذه السياسة حين جرى تطبيقهـــا على صورة صارمة متشددة قد أفضت بالضرورة الى قيام مجتمع طبقى ذى هندسة هرميـــة واضحة المعالم • وليس من شك فى أن هذه السياسة تعتبر استمرارا أو تكريسا لاوضـــاع طبقية ورثها الرومان عن أسلافهم البطالمة • وكان هوءلاء قد استنوا منذ بداية حكمهـــم فى مصر سياسة منح الامتيازات لفئات من سكان البلاد دون أخرى ، لاسيما للعنصـــــر المقدونى بصفة كونه عنصر السادة الفاتحين ، وللعنصر الاغريقى الذى قدروا أنهم فـــــى أمس الحاجة اليه لاقامة صرح دولتهم فى مصر فعملوا على اجتذابه الى البلاد عن طريـــق اغداق شتى الامتيازات المادية والأدبية عليه ، فكانوا بذلك هم واضعى أساس سياســـــة التمييز العنصرى بين السكان فى مصر • ومن الواضح أن الرومان نسجوا على منوال البطالمـة فى مجال السياسة الاجتماعية انطلاقا من ذات الاهداف العملية والاحتياج المادى للعنصـــر الاغريقى ، وهو ماكان يجرى فى خط مواز لاعجابهم وتقديرهم لمنهج التعليم والثقافـــــة الاغريقية ، وثقتهم فى قدرة هذا العنصر على القيام بدور فعال فى تحقيـــق أهـــــداف سياستهم فى مصر •

بيد أن الرومان اختلفوا عن أسلافهم البطالمة فى مجال تطبيق هذه السياســـــة الاجتماعية ، من حيث المحك الذى اتخذوه معيارا للتمييز بين الفئات والطبقات، وكذلك من حيث الأسلوب الذى اتبعوه للحفاظ على الأوضاع الطبقية • فأما من حيث معيـــــار التمييز فقد حدده الرومان بشكل قاطع هو وضعية الفئة أو الطبقة من أداء تلك الجزيـــة التى فرضت على سكان مصر من الذكور من سن الرابعة عشرة حتى سن الستين ، والـــتى نذكرها فى دراساتنا عادة باسم (ضريبة الرأس) ، فمن طبقات أعفيت من دفع هـــــذه الضريبة اعفاء كاملا وتربعت على قمة الهرم الطبقى ، الى فئات دفعت الضريبة كاملـــة غير منقوصة وقبعت فى الدرك الأسفل منه ، الى فئات دفعتها بمعدلات منخفضة ووقفـــت فى منتصف المسافة بين القمة والقاع على نحو ما سيأتى بيانه • وأما من حيث الأسلـــوب

فقد ابتكر الرومان نظما انعكست فى مجموعة من الاجراءات الادارية الدقيقة التى استهدفت الحفاظ على تلك الهندسة الهرمية للمجتمع الطبقى • وقد ترتب على هذه النظم دفع سياسة التمييز العنصرى البطلمية نحو مزيد من الجمود • ولعل من الأمور التى تظهر ذلك على سبيل المثال أن بعض المصطلحات التى كانت ترد فى وثائق العصر البطلمى للاشارة الى فئات أغريقية من سكان "ريف" مصر لها نمط حياة متميز ، أو فلنقل ممتاز ، مثل "مواطنو عواصم الاقاليم " οἱ μητροπολῖται أو " رجال الجمنازيوم οἱ ἀπὸ γυμνασίου " أصبحت فى وثائق العصر الرومانى تطلق للدلالة بشكل محدد على فئات اجتماعية أو طبقات مغلقة لا يمكن أن ينخرط فى صفوفها الا من تتوافر فيهم شروط محددة تعطيهم هذا الحق •

ومن نافلة القول أن نشير هنا الى الارتباط الوثيق بين هذه السياسة الاجتماعية المتشددة وأهداف سياسة الرومان الاقتصادية التى توءكد مصادرنا الأدبية والوثائقية، بما لا يدع مجالا لأى شك ، أنها تركزت فى الحصول على أكبر عائد يمكن أن تدره ولاية مصر الغنية عن طريق اعتصار كافة مواردها الطبيعية والبشرية • ففى مجال تنظيم المجتمع الطبقى على أساس أوضاع مختلف فئات السكان من حيث دفعهم ضريبة الرأس، نجد أنفسنا بازاء صيغة رومانية مقننة أو قالب قانونى أفرغت فيه سياسة عملية تستهدف تحقيق منفعة مادية • فالفئة التى دفعت هذه الضريبة بمعدل منخفض كانت تتألف من عناصر منتقاة من سكان عواصم الاقاليم الذين ترد الاشارة اليهم فى الوثائق الرسمية بمصطلح رسمى يفيد تميزهم على أساس شروط معلنة صريحة • وقد اعتبر الرومان هوءلاء سلالة الاغريق الذين استوطنوا " ريف" مصر ابان العصر البطلمى ، وحشروا فى زمرتهم أيضا عناصر أخرى من " المتأغرقين" الذين أخذوا بأسباب الثقافة الاغريقية لان هوءلاء وأولئك جميعا كانوا فى نظرهم قادرين بحكم تعليمهم أو وضعهم الاجتماعى المتميز على النهوض بقدر معلوم من أعباء الحكم والادارة بما يحقق لهم نوعا من التخفف من هذه الاعباء • ومن هنا كان اتجاه السياسة الرومانية الى أن تخلق منهم طبقة " وسطى" من خلال منحهم امتيازا اقتصاديا يوءكد تميزهم الاجتماعى والثقافى حين يضعهم فى اطار محدد تقوم على تثبيته اجراءات ادارية دقيقة • ولكن هذه الفئة الممتازة كان ينبغى أن تظل محصورة فى حدود لا تتعداها - - - - - - - حتى لا يتكاثر عدد أفرادها مما يوءدى الى نقص موارد الحكومة من ضريبة الرأس التى كانت من أهم مصادر الدخل

فى بداية الحكم الرومانى • ومن ثم كان لابد من اتخاذ تلك التدابير الادارية لضبط تسجيل أسماء أصحاب الحق فى الانتماء اليها دون غيرهم •

جماعات رجال الجمنازيوم فى العصر البطلمى

وفى ضوء هذا التوضيح المجمل لهذه المرتكزات الأساسية فى سياسة الرومان فى مصر تتناول دراسة وضع احدى الفئات الاجتماعية الممتازة التى سبق أن ألمحنا اليها ، والتى تعتبر فى حد ذاتها شاهدا واضحا على هذه السياسة ، وهى فئة يرد ذكرها فى الوثائق بمصطلح ثابت ينم عن صلة أفرادها الوثيقة بموءسسة الجمنازيوم γυμνάσιον وهى التى اخترنا لها هنا ترجمة عربية مقاربة للمعنى هى " رجال الجمنازيوم " وتتراوح الصيغة التى يرد بها المصطلح فى الوثائق بين :

οἱ ἀπὸ γυμνασίου أو οἱ ἐκ τοῦ γυμνασίου

وهو فى الحالتين ، وسواء فى وثائق العصر البطلمى أو العصر الرومانى يشير الى أشخاص ينتمون الى هذه الموءسسة المهمة فى الحياة العامة الاغريقية على نحو يكاد أن يحدد هويتهم ، بل على نحو يضعهم - فى مجتمع يقوم على أساس من التمايز الطبقى - فى وضع الشريحة الاجتماعية المتيزة • فما طبيعة العلاقة بين هذه الفئة وموءسسات الجمنازيوم فى مصر فى عصر البطالمة قبل أن تصبح هذه العلاقة فى عصر الرومان علامة واضحة على الامتياز الاجتماعى ، بحيث غدت هذه الفئة بصريح اللفظ فى الوثائق " طبقة " τάγμα ، مختارة من بين مختارين ، أو كما قيل ، صفوة من بين صفوة ؟

نشير هنا ابتداء الى ما كان للجمنازيوم من أهمية بالغة فى حياة الاغريق الثقافية والاجتماعية أينما حلّوا ، أى سواء عاشوا فى ظل نظامهم الاثير لديهم فى بلادهم وهو نظام " دولة المدينة " ، أم اضطرتهم الظروف فى بعض مهاجرهم ابان العصر الهلنستى الى العيش فى خارج نطاق " المدن " ، فاستعاضوا عن ذلك النظام بصيغ بديلة تقترب قليلا أو كثيرا من صيغة نظام المدينة • ذلك أن الجمنازيوم لم يكن مجرد موءسسة تربوية تعليمية ينهى فيها الاغريق مرحلة وسطى من تعليمه وتدريبه فحسب ، وانما كان كذلك مركز النشاط الثقافى الاجتماعى ، بل عماد الحياة العقلية الاغريقية منذ

شملوها برعايتهم ، وكانوا يمدونها أحيانا بالاعانات • غير أنه بالرغم مما يوحى به السياق الذى يرد فيه ذكر الوظيفتين الرئيسيتين فى معاهد الجمنازيوم فى الاقاليم فى وثائق ذلك العصر ، وأعنى بهما وظيفتى مدير المعهد γυμνασιάρχης والمشرف على التعليم κοσμητής ، بما يفيد أن الوظيفة الاولى كانت أرفع شأنا من الثانية وما يوضح أن الوظيفة الاولى كانت تشغل لمدة عام واحد فى الاغلب ، فاننا لا نستطيع القول بأنه كان لأىٍ من هاتين الوظيفتين سلطة ما مستمدة من الحكومة (١) • غير أن الحكومة مارست نوعا من الاشراف على تلك الموءسسات الاهلية باعتبار أن شئون التعليم كانت تهم الدولة مثلما تهمها شئون الصناعة والديانة مثلا• وقد وصلتنا وثيقة من الفيوم تتضمن التماسا مقدما الى حاكم هذا الاقليم للحصول على اذن منه لاجراء الاصلاح اللازم فى جمنازيوم باحدى نواحى الاقليم بالرغم من أن هذا الجمنازيوم كان من تأسيس أحد الافراد وآل بطريق الارث الى شخص آخر (٢) • ولعل هذه الجوانب من رعاية البطالمة واشرافهم على الجمنازيوم هى التى خلعت على هذه الموءسسة فى عصرهم صفة شبه رسمية ، وان بقيت طيلة هذا العصر موءسسة أهلية •

ونتناول الآن مجموعة الشواهد المتوافرة لدينا من الوثائق فيما يخص العلاقة بين الجمنازيوم والجمعيات القومية الاغريقية (البوليتيوماتا) من ناحية ، وبين الجمنازيوم ومنظمات الشبيبة ἔφηβοι من ناحية ثانية ، ثم بين هذه الهيئات جميعا ونظام الاعداد للخدمة العسكرية فى الجيش البطلمى مما قد يبين الاصل فى ظهور تعبير " رجال الجمنازيوم " οἱ ἐκ τοῦ γυμνασίου ، وطبيعة تميز وضع هذه الفئة فى العصر البطلمى • فاما الجمعيات القومية فكانت فى الاصل هيئات سياسية نظمت على نمط المدن الاغريقية كما سبق أن أشرنا • غير أن هذه الجمعيات كانت ذات طابع عسكرى وصلة وثيقة بالجيش (٣) • ويرى " لسكيه " أن البطالمة استخدموا هذه الجمعيات بوصفها ضوابط لقصر الخدمة العسكرية فى جيشهم النظامى على المقدونيين والاغريق وفقا لما

---

(1) Brady, op. cit., pp 10-11.

(٢) ابراهيم نصحى ، تاريخ التربية والتعليم فى مصر - عصر البطالمة - ص ٦٦ •

(3) Launney, Recherches, Vol. II, p. 1079.

بمجرد استخدام صيغة الفاعل : ἐφηβεύων (١) وقد أوضح قيلكن (٢)
أن تعبير " رجال الجمنازيوم οἱ ἐκ τοῦ γυμνασίου
أصبح يطلق على الشبان منذ العام التالى مباشرة للعام الذى باشروا فيه تدريبهم • كذلك يبدو محتملا أنه قد استمر اطلاق هذا التعبير على مجموعات من الشبان كانوا قد أنهوا عام التدريب منذ عدة سنوات واستطاعوا مع ذلك الاحتفاظ فيما بينهم برابطة زمالتهم ابان فترة تدريبهم قوية ، كما استمرت صلتهم قوية بالجمنازيوم وبالقائمين على الأمر فيه • (٣)

(٣) ان اعتبار جماعة " رجال الجمنازيوم" بهذه المثابة فئة مختارة من بين اغريق الأقاليم ، على أساس أن أفرادها كانوا أعضاء سابقين فى منظمات الشبيبة انما يؤكده الرأى الذى يستند الى بعض الشواهد والقائل بأنه قد انبثقت من داخل الجماعة فئة منتقاة من الشبان ورد ذكرهم فى الوثائق باسم νεάνισκοι (٤)
وشغلوا مكانا هاما فى الاشراف على الجمنازيوم وفى مجال الخدمة العسكرية فى آن معا • ولعل هذه الفئة المنتقاة تعتبر فى حد ذاتها دليلا على الصلة الوثيقة بين الجمنازيوم ونظام الخدمة العسكرية القائم على الاختيار وليس على الاجبار •

هكذا كان " رجال الجمنازيوم " فى العصر البطلمى جماعات اغريقية مختارة تلقى أفرادها تعليمهم فى معاهد الجمنازيوم ، والتفوا حول هذه المؤسسات فى هيئة وحدات متعاونة شديدة التماسك ، بهدف دعمها وامدادها بما تحتاجه من أموال، والقيام على تنظيم شئونها • ومن أجل ذلك اعترف البطالمة بمجتمعات رجال الجمنازيوم ومنحوها امتيازات هامة كامتلاك الأراضى والعقار والمتاع كما منحوها حق اصدار القرارات (٥) - ولنا (٦)

---

(1) SB. 6159 (1570156 B.C.)
(2) Cf. Archiv für Papyrusforschung, v, 412
(3) Brady, op. cit., p 13.
(4) Wilcken, Gründzuge., 140.
(5) Rost., op. cit, p. 1059
(6) SB. 7246: " ἔδοξε τοῖς ἐκ τοῦ γυμνασίου " ؛ SB 7146 : "ἔδοξε τοῖς ἐκ τοῖς ..... γυμνασίου"؛ Archiv. V(1913), pp. 415 f : " ἀνα(γ)ρά(φ)αι τὸ ψήφισμα τοῦτ(ο) ".

أن نتصور بالطبع أن أعضاء هذه الجماعات كانوا على شيء من الغنى واليسار ولذلك كونوا فى أقاليم مصر نوعا من النبالة . غير أنه لا يلوح أنهم أخذوا وضع الطبقة الاجتماعية المغلقة .

ومن جهة أخرى ، فانه اذا كان من المؤكد أن هؤلاء الأعضاء تلقوا تعليما اغريقيا فى الجمنازيوم ، فليس من المؤكد أنهم كانوا جميعا من الاغريق . فنحن نتصور أنه كان لابد من أن يأتى على الجمنازيوم حين يقبل فيه فى صفوفه أعضاء من غير الاغريق ، ولدينا قرينة مباشرة عن شخصين أحدهما تراقى والآخر فارسى شغلا فى العصر البطلمى منصب مدير الجمنازيوم (الجمنازيا رخوس) (١) . فماذا بعد عن ادراج المصريين فى الجمنازيوم ؟ ان "لونيه" (٢) يرى أن أبواب هذه المعاهد ظلت موصدة تماما أمامهم ، وهو رأى لا يمكننا قبوله بالرغم من أننا لا نملك دليلا مباشرا من الوثائق على ادراج المصريين فيها . ذلك أننا نتصور أن الشعور بالتميز والامتياز بل الاستعلاء الذى وجد لدى اغريق الاقاليم فى بداية عهدهم بالاقامة فى مصر أخذ بمرور الوقت يقل بالتدريج لتحل محله روح التسامح مع المصريين بل روح التأقلم مع البيئة المصرية خاصة فى مجال تقبل العقائد والالهة المصرية . ولعلنا نذكر على ذلك قرينة من الفيوم ترجع الى القرن الاول قبل الميلاد ونرى فيها جماعة من أعضاء منظمة الشبيبة Ἔφηβοι يقدمون قرابين الى "سوخوس" اله الفيوم فى صورة طوطم التمساح (٣) . وعلى الجانب المقابل نتصور وجود طائفة من المصريين من ذلك النوع الذى يوجد فى ظل أى احتلال أجنبى فى كل عصر ، وكأن هؤلاء يتطلعون الى الحصول على تعليم اغريقى فى الجمنازيوم يتيح لهم فرصة شغل مراكز فى الخدمة المدنية او العسكرية . كذلك ينبغى الا ننس عاملا مهما آخر وهو ان المصريين منذ عهد بطليموس الرابع انخرطوا فى سلك الخدمة العسكرية فى الجيش النظامى ، ووصل مصريون الى مراكز رفيعة فى الادارة ، ولدينا قرينة على

---

(1) SB. 6157, 1.8; 7246, 1.4.

(2) Launney, op. cit., p. 865 1.

(3) O.G.I.S. 176, 178: " ὑπὲρ ..... Σοῦχου θεῷ μεγάλῳ ".

الاهتمام على معاهد العواصم ، تمشيا مع سياسته العامة سواء فى مصر أم فى غيرها من الولايات بهدف دعم الفئات الاكثر تشبعا بالثقافة الاغريقية لتستطيع الصمود فى مواجهة جماهير الوطنيين وهى سياسة نراها فى مصر فى صورتها الأوسع والاعم فى تقوية عاصمة الاقليم Metropolis ذاتها فى مواجهة القرية κώμη ويتجلى مظهر مهم منها فى محاولة وضع العاصمة فى اطار مشابه لاطار البلدية الرومانية Municipia وتعيين عدد من الموظفين ἄρχοντες لادارة شئونها المحلية • وقد جعل أوغسطس لمنصب مدير الجمنازيوم صفة رسمية ووضعه على رأس هؤلاء الموظفين المحليين ، ولا غرو فى ذلك لما سبقت الاشارة اليه من الاهمية البالغة للجمنازيوم فى حياة الجماعات الاغريقية خاصة فى اقاليم مصر خارج المدن الاغريقية • كذلك يبدو أن ما خلع على المنصب من تكريم كان اجراء من جانب الحكومة يكافىء الاعباء المالية التى كان ينهض بها شاغله • فالواقع أن المهمة الملقاة على عاتقه لم تكن ادارة الجمنازيوم ، (فتلك مهمة كانت أدخل فى اختصاصات الكوزمتيين Cosmetes)، بقدر ما كانت ضمان توفير مئونة الجمنازيوم لاسيما ما يتعلق بالوقود اللازم للحمامات والزيت لدهان أجسام الرياضيين •(١)

وقد تجلت مظاهر تشريف هذا المنصب فى حراس أربعة يختارون من أعضاء منظمات الشبيبة ويرافقون الموظف فى مسيره ، وفى حفل رسمى يقام أمام مبنى الجمنازيوم ويقوم مدير الاقليم (الاستراتيجوس) فيه بتقليد الشخص المعين مهام منصبه ، ثم فى شارات خاصة كان يرتديها الموظف ، وهى عبارة عن غطاء رأس على هيئة العمامة στροφεῖον وحذاء أبيض اللون φαινάσιον (٢) • وليس من شك فى أن تقلد هذه الوظيفة كان فى الشطر الاول من الحكم الرومانى فى مصر شرفا يسعى اليه القادرون على احتمال أعبائه المالية بل ويتنافسون عليه ، وتقام الولائم من جانب الفائزين به احتفاء بنوالهم هذا الشرف (٣) • ولابد أنه بمرور الوقت تكونت فى عاصمة كل

---

(١) عن هذه الوظائف المحلية واختصاصاتها راجع :

Jouguet, La Vie municipale, pp. 315- 342.

(2) Jouge., op. cit. 319

(٣) انظر مثالا لهذا الاحتفال P. Oxy. 2147 .

اقليم طبقة مميزة من بعض الاسر التى تولى أفراد منها هذا المنصب المهم على التوالى فأحرزت أسرهم بذلك وضع النبالة المحلية • ووجدنا فى الوثائق أفرادا يقومون ببعض المهام الرسمية مثل عضوية لجنة فحص طلبات العضوية فى الفئات الممتازة ، دون أن يكون لهم أى صفة وظيفية قائمة اللهم الا صفة كونهم مديرين سابقين لمعهد الجمنازيوم (١) •

ومن المنطقى أن نتصور - بالرغم من افتقارنا الى التفصيلات الكافية - أنه مع تزايد الصفة الرسمية للجمنازيوم، ازداد اشراف الحكومة على نظام التعليم فيه ، وأن هذا النظام نحا نحو اعداد خريجى الجمنازيوم ليتولوا مهام وظيفية فى الادارة المحلية سواء فى الوظائف الحكومية أم الوظائف البلدية • ومن وجهة أخرى فانه مع تغير نظام الخدمة العسكرية فى مصر فى العصر الرومانى من حيث الاساس ، كان طبيعيا أن تنتهى تلك العلاقات الخاصة التى توثقت عراها بين الجمنازيوم ورجال الجيش فى العصر البطلمى ، تماما مثلما فقدت الجمعيات القومية ذات الطابع العسكرى علة وجودها • وكان من البديهى أن ينعكس هذا كله على وضع جماعات " رجال الجمنازيوم " التى رأيناها من قبل قائمة حول تلك الموءسسة من أجل رعايتها ودعمها دعما ماليا والاشراف عليها • فما الصورة الجديدة التى اتخذتها هذه الجماعات فى ظل تلك المتغيرات السياسية والاجتماعية ؟

" رجال الجمنازيوم " بوصفهم طبقة اجتماعية

ان مجموعة من الشواهد تشير الى أن تغييرا جذريا قد طرأ على وضع هذه الجماعات بحيث تحول أعضاؤها فى ظل الحكم الرومانى الى طبقة اجتماعية مغلقة لايمكن أن ينخرط فى سلكها الا أشخاص تتوافر فيهم شروط محددة متوارثة أبا عن جد • وقد تجمعت هذه الشواهد من أنواع شتى من الوثائق منها اقرارات الاحصاء المنزلى

---

(١) P. Oxy, 1028 .

κατ' οἰκίαν ἀπογραφή الذى كان يجرى فى جميع أنحاء البلاد بأمر من والى مصر الرومانى كل أربعة عشر عاما بصفة دورية منتظمة،ووثائق اشهار الميلاد ὑπομνήματα ἐπιγενήσεως ، وطلبات المتقدمين لفحص مستنداتهم تمهيدا لادراج أسمائهم فى فئات ممتازة ἐπίκρισις ، وطلبات التسجيل فى الاحياء ἄμφοδα فى عواصم الاقاليم ، والالتماسات المرفوعة الى بعض المسئولين. ولعل اكثر هذه الوثائق وضوحا من حيث بيان وضع هذه الطبقة فى العصر الرومانى هى اقرارات الاحصاء المنزلى وطلبات فحص المستندات . ذلك أن اقرارات الاحصاء التى نشر منها حتى الآن قرابة ثلاثمائة وثيقة (ولا يزال البعض الاخر قيد النشر دون شك) (١) تقدم معلومات كافية واضحة وصريحة عن قاطنى كل منزل من حيث اعمارهم وصلات القرابة بين بعضهم البعض ، كما تحدد بعض الصفات الجسمانية المميزة للاشخاص ان وجدت امعانا فى التدقيق وأهم من ذلك جميعا الاشارات الواردة فى تلك الاقرارات عن أوضاع الساكنين الاجتماعية من حيث الانتماء الى فئات ممتازة . أما وثائق فحص المستندات فهى اكثر أهمية فى هذا المجال لانها تحدد الشروط التى ينبغى أن تتوافر فيمن ينتمى الى فئة أو أخرى من الفئات الممتازة . وقد كانت عملية الفحص هذه ابتكارا اداريا أدخله الرومان لضبط الأوضاع الطبقية والحفاظ على شكل المجتمع ثابتا بما يتمشى مع سياستهم الاجتماعية فى مصر .

وأول ما ينبغى أن نهتم ببيانه الآن تلك الدلالات القوية الواضحة فى الوثائق المذكورة بما يؤكد وضعية "رجال الجمنازيوم" بصفة كونهم طبقة اجتماعية مغلقة ابان العصر الرومانى . وقد استلفت نظر الباحثين منذ فترة طويلة تميز أفراد هذه الفئة عن أفراد فئة أخرى ممتازة اصلا وسلفت الاشارة اليها فى بداية حديثنا ، ونعنى بها فئة "مواطنى عواصم الاقاليم" التى كان امتيازها امتيازا اقتصاديا هو دفع ضريبة الرأس على أساس معدل منخفض ، وهو امتياز توارثه أفراد هذه الفئة أبا عن جد ، وكان الحصول

---

(1) Naphtali Lewis, Life in Roman Egypt, PP. 157-158.

عليه يتطلب اجراء عملية فحص ἐπίκρισις خاصة لمستندات من يطلبه.(١)

وقد وضح تميز وضع فئة "رجال الجمنازيوم" عن وضع فئة مواطنى عواصم الأقاليم من أن أفرادا كان قد تم تسجيلهم فى الفئة الثانية عقب اجراء عملية فحص مستنداتهم تقدموا بطلبات أخرى مزودة بمستندات أخرى يطلبون فيها تسجيلهم فى الفئة الثانية . وقد أظهرت هذه الحقيقة بشكل قاطع الوثيقة رقم ١٤٥٢ من وثائق البهنسا (P. Oxy., 1452) وتحتوى على نصين على عمودين ، ويتحدث أولهما عن صبى يدعى سرابيون يتقدم الى السلطات طالبا ادراجه فى قائمة مواطنى عواصم الاقاليم بناء على مستندات بعينها، ويتحدث النص الثانى عن الصبى نفسه وهو يتقدم للسلطات بطلب آخر مدعم بمستندات أخرى مغايرة لادراجه فى قائمة "رجال الجمنازيوم". وقد بينت هذه الوثيقة التمايز بين الفئتين على أساس انتقائى محض وأصبحنا نعلم أنه كان من الممكن أن يكون الشخص منتميا لفئة مواطنى العواصم التى تمتعت بامتياز اقتصادى دون أن يكون من رجال الجمنازيوم ، وأن هذه الفئة الاخيرة لابد وأن تكون قد تمتعت

---

(١) ترد الاشارة الى هذه الفئة فى الوثائق تارة بتعبير οἱ μητροπολῖται وأخرى باسم ἐκ μητροπόλεως أو οἱ ἀπὸ μητροπόλεως ويتضح أن الفارق بين هؤلاء وبين سائر السكان فى عاصمة الاقليم من وجهة النظر الادارية أنهم مسجلون فى أحياء فى العاصمة " ἀναγραφόμενοι ἐπ' ἀμφόδου χ " . ويظهر جليا من مراجعة صيغة وثائق فحص مستندات هذه الفئة ان التسجيل فى الحى ἄμφοδον كان يعد شرطا أساسيا لادراج الشخص فى صفوفها . ونعلم من الوثائق ان المعدل المنخفض لضريبة الرأس الذى كان يدفعه هؤلاء فى اقليم الفيوم كان عشرين دراخمة من أصل الضريبة الذى بلغ اربعين دراخمة ، كما نعلم أن المعدل المنخفض فى اوكسير ينخوس (البهنسا) هو اثنتا عشرة دراخمة وفى كل من هرموبوليس (الاشمونين) وهيراكليوبوليس (اهناسيا) ثمانى دراخمات، وان كنا لا نملك معلومات مباشرة عن مقدار الضريبة الكاملة فى هذه الاقاليم. وعندما كان الصبى المراد ادراجه فى هذه الفئة الممتازة يقترب من سن الرابعة عشرة التى كان يبدأ عندها دفع الضريبة كان والده أو القيّم عليه ἐπίτροπος يتقدم بطلب فحص مستندات الصبى لاثبات حقه فى هذا الخصوص . ويبدو من مراجعة هذه المستندات δίκαια انه كان يشترط انحدار الصبى من أب وأم مسجلين فى الفئة المذكورة . غير أنه بالرغم من ثبوت أن الامتياز الاقتصادى (والاجتماعى) لفئة مواطنى عواصم الاقاليم كان متوارثا ، فاننا لا نلحظ انها كانت تشكل طبقة اجتماعية مغلقة . راجع فى ذلك:

Farouk El-Kady, The Epikrisis in Roman Egypt (in modern Greek), Athens, 1973, PP 51-56.

بامتياز آخر تجاوز هذا الامتياز الاقتصادى.

ونورد الآن بعض القرائن التى تضيف الى فئة رجال الجمنازيوم بعدا آخر يجاوز بها وضعية الفئة الممتازة الى وضعية الطبقة الاجتماعية التى لم يكن النفاذ الى داخل صفوفها امرا ميسورا ويمكن تجميع هذه القرائن على النحو التالى :

(١) ورد ذكر هذه الفئة فى بعض الوثائق مقرونا بلفظ τάγμα ونشير فى هذا الى البردية رقم ١٢٠٢ من برديات البهنسا وترجع الى عام ٢١٧م وهى تتضمن شكوى مرفوعة من والد أحد الصبية الى القائم بأعمال مدير عام المنطقة من أن كاتب الحى διαδοχόμενος τὴν ἐπιστρατεγίαν ἀμφοδογραμματεύς اغفل تسجيل ابنه فى قوائم الشبيبة ἔφηβοι بالرغم من أنه من طبقة رجال الجمنازيوم (١). ويتضح من عديد من البرديات ان لفظ τάγμα اليونانى كان يرادف فى الاستخدام العام لفظ ordo اللاتينى بمعنى الذى طبقة. وقد ورد اللفظ بهذا المعنى فى المادة الخامسة والخمسين من لائحة ديوان الحساب الخاص ἴδιος λόγος فيما يتعلق "بطبقة" المصريين Αἰγύπτιον τάγμα (٣). وفى البردية رقم ١٢٥٢ (٤) من برديات البهنسا حيث نجد ذكرا لطبقة مديرى معهد الجمنازيوم.

(٢) لم يقتصر اطلاق اسم الفئة على الصبية الذين لهم حق الانخراط فى سلك التعليم فى معهد الجمنازيوم عند بلوغهم سن الثالثة عشرة ، بل كان يطلق على النساء وعلى رجال فى سن متقدمة بوصفهم أعضاء فئة متميزة تميزا اجتماعيا واضحا. وفى وثائق اشهار الميلاد نرى اطفالا يوسمون حال ولادتهم بأنهم من "رجال الجمنازيوم" ومن الواضح انه كان ينبغى ان تمر ثلاث عشرة سنة قبل أن يتقدم اباء هؤلاء المواليد

---

(1) P.O. 1202, 11.17-18 " ... ὄντος ἐν τοῦ τάγματος τοῦ παρ' ἐμεῖν γυμνασίου "

وقارن ايضا : Wilcken, Grundzüge, P 200:

" οἱ ἐν γυμνασίου εἰ αὐτοῦ τοῦ τάγματος ..."

(2) Cf. Liddell & Scott, Greek. English Dict., P. 1309.

(3) P. Gnom., Art 55: " ... εἰς Αἰγύπτιον τάγμα ἀποκαθίσταται ".

(4) P.O. 1252, 1. 24: " τὸ τάγμα τὸ τῶν γυμνασιάρχων ".

أو أوصياؤهم الى السلطات بطلبات لفحص مستنداتهم تمهيدا لادراجهم رسميا فى قوائم هذه الفئة واشتراكهم من ثم فى حياة الجمنازيوم .

ولكن بما أن الطفل ولد لابوين ينتميان الى هذه الطبقة فقد تعين وضعه تبعا لوضع والديه الى أن يحين وقت تكريس هذا الوضع رسميا عند اقترابه من سن الرابعة عشرة .(١)

(٣) فى وثيقة من هرموبوليس تتضمن طلبا لادراج صبى فى قائمة " الشبيبة " يشير والد الصبى الى وضعية زوجته (أم الصبى) قائلا انها مسجلة فى قائمة " رجال الجمنازيوم "(٢) . ونعلم من ذلك ان ثمة سجلات خاصة قد اعدت لتدوين اسماء اعضاء هذه الفئة بحيث يمكن الرجوع اليها للتأكد من أحقية المطالبين باثبات عضويتهم .

(٤) ان طبيعة المستندات التى كانت تقدم الى السلطات لفحصها قبل موافقة هذه السلطات على ادراج الصبى فى قائمة رجال الجمنازيوم واسلوب تدبيج هذه المستندات(٣) بحيث يتتبع والد الصبى او الوصى عليه احقيته الوراثية فى عضوية هذه الفئة ابا عن جد عبر أجيال (بلغت فى بعض الوثائق سبعة منذ الوقت الذى جرى عنده حصر اعشائها رسميا للمرة الاولى فى عام ٥/٤ ميلادية) ، كل ذلك يشير ويؤكد مدى التدقيق الذى اتسمت به عملية الفحص كما يعطينا انطباعا قويا بأن هذه الفئة كانت تشكل " هيراركية " اجتماعية مغلقة . ومما يؤكد ذلك من ناحية اخرى صيغة القسم الذى كان يقطعه والد الصبى على نفسه لاثبات حق ابنه ، والذى يذكرنا بصيغة القسم الذى كان يؤديه المواطن الاثينى عند تقدمه لادراج اسم ابنه فى سجل العشيرة φράτρα (ثلث القبيلة) عند بلوغ السن القانونية لذلك . فقد كان الاب الاثينى يقسم بأن ابنه ولد

---

(1) Bickermann, Beitrage zur antiken Urkundengeschichte II, Archiv V. (1930 p 40 & Mertens, Les services de l'état Civil et Le Controle de la, population à Oxyrhynchus au 111 siécle, Bruxelles (1958) , P. 120.

(2) P. Flor. 79, 1.24: " εἶναι μέ ἐν παραδοχῇ τῶν ἀπὸ γυμνασίου ".

(3) P. Oxy. 2166.

له من امرأة اثينية تزوجها زواجا شرعيا ἐξ ἀστῆς καὶ ἐγγυητῆς γεναῖος.

وقد كان العلامة " قسلى" هو اول من نبه فى وقت مبكر من دراسة وثائق الفحص epikrisis الى التشابه بين صيغة كل من القسمين (١) • وهو ما نراه مؤكدا لوضعية الطبقة المغلقة فى حالة فئة رجال الجمنازيوم فى عصر الرومان •

كذلك يتأكد لدينا الانطباع عن هذه الوضعية الطبقية من دراسة ما لدينا من وثائق خاصة بعملية الـ εἴσκρισις وهو اجراء اداري كان يتم من خلاله ادراج الشباب ἔφηβοι فى منظماتهم حيث يتلقون تدريبا خاصا لفترة محددة توطئة لادراجهم فى هيئة المواطنين فى "المدينة" الاغريقية • ونحن نلاحظ على هذه الوثائق اولا ان المتقدمين بطلبات الالتحاق بمنظمات الشباب لم يكونوا يذكرون من مسوغات δίκαια سوى صفة كونهم من طبقة رجال الجمنازيوم ، وهنا نشير مرة اخرى الى البردية رقم ١٢٠٢ من برديات البهنسا التى سبق أن أشرنا اليها (P. Oxy., 1202) والمتضمنة لشكوى الاب الذى اغفل احد الموظفين المختصين تدوين اسم ابنه فى سجل الشبيبة بالرغم من أنه من " رجال الجمنازيوم" • فلو ان ذلك الاب كان يعلم ان ثمة مسوغ اخر غير ذلك مطلوب لحصول ابنه على حقه لما تردد فى ذكره والتأكيد عليه • ومعنى ذلك انه ما ان يتم تسجيل الصبى على أنه من طبقة رجال الجمنازيوم حتى يكون قد ضمن تسجيله فى منظمة الشباب حين يحين ذلك •

ومن ناحية اخرى فاننا نعلم بالطبع ان انخراط الشباب فى سلك المنظمة وتلقيه التدريب الضرورى فيها كان متطلبا اساسيا لحصوله على حقوق المواطنة فى المدينة الاغريقية πολιτεία بالرغم من أنه - من الناحية القانونية - كان الشاب يعتبر فى هيئة مواطنى المدينة حال تدوين اسمه فى سجل الحى deme ، هكذا كانت النظم تقضى فى مدينة أثينا مثلا، (٢) وكانت الامور تجرى على غرار ذلك فى مدينة الاسكندرية (٣) • ولذلك نفهم

---

(1) Wessely, Epikrisis, Sitz. Akad. Wien., 1900, P. 39

(2) Reinmuth, The Ephebate and Citizenship in Attica, T.A.P.A, 79 (1948), P. 212.

(3) El-Abbadi, The Alexandrian Citizenship, J.E.A. 48 (1961), P. 113.

على الفور اهمية اجراء عملية الـ εἴσκρισις بالنسبة لابناء مواطنين اسكندريين يقيمون مع ابائهم لسبب او لاخر فى عاصمة لاقليم مثل اوكسيرينخوس او هرموبوليس ، وتصبح طلبات الـ εἴσκρισις التى ينص فيها بوضوح على صفة المواطنة الاسكندرية لهوءلاء الاباء امرا مفهوما وطبيعيا • لكن الذى يثير التساؤل هوتلك الطلبات التى لايظهر منها انها تخص مواطنى " مدن" مقيمين خارجها فى الاقاليم ، على أساس ما يبدو من عدم جدوى هذه الطلبات اصلا لانه ليس ثمة حقوق مواطنة ترتجى من اجراء العملية فى جملتها . وهذا التساؤل يميل بنا حينا الى افتراض اجراء عملية εἴσκρισις محلية فى وسط الجماعة الاغريقية فى عاصمة الاقليم على يد الاكسيجتيس الذى نعلم ان من اختصاصاته الاساسية بوصفه احد كبار الموظفين البلديين المحليين هناك هو الحفاظ على التركيب الاجتماعى الفئوى اوالطبقى للجالية الاغريقية • وان الجماعة الاغريقية توءكد بهذا الاجراء المحلى الامتياز الطبقى لرجال الجمنازيوم ، وهوتكريس لوضعية طبقية كانت الحكومة الرومانية تشجعه وترعاه •

بداية تكوين طبقة رجال الجمنازيوم - امتيازاتهم الاجتماعية

ونحاول الآن ان نتبين مما لدينا من وثائق الوقت الذى اوجدت فيه الادارة الرومانية هذه الطبقة لتكون معينا تستمد منه العناصر القادرة على النهوض ببعض اعباء الحكم والادارة • ونستطيع ان نصل الى تحديد لهذا الوقت من دراسة الوثائق الخاصة بعملية فحص المستندات ἐπίκρισις وهى العملية التى كانت وسيلة الادارة الرومانية الى ابقاء هذه الطبقة محصورة فى دائرة محكمة يتعذر التسلل الى صفوفها من جانب غير الموءهلين لعضويتها • ومن حصر الوثائق التى تم نشرها حتى الوقت الراهن نتبين التالى :

أولا : فى خمس من الوثائق التى وصلتنا سليمة فى الموضع المتضمن لمسوغات طالب الفحص δίκαια (١) ورد ذكر لتسجيل احصائى γραφή أجرى فى العام الرابع والثلاثين من حكم الامبراطور اوغسطس (٢) ، وهو ما يقابل عام ٤-٤ للميلاد • وتبدو

(١٢٧-١٢٨)

(1) P. Oxy. 257 (م ٩٤ - ٩٥) P. Oxy, 1266 (م ٩٨) P. Oxy.1452 11
P. Oxy. 2186 (م ٢٦٠), P.S.I. 457 (م ٢٧١)

(2) " ... ἔστιν ἐν τῇ τοῦ λδ (ἔτους) τοῦ θεοῦ Καίσαρος γραφῇ "

أهمية هذا التسجيل الاحصائى فى أنه الاساس الذى كان اصحاب الطلبات يرتبون عليه حقهم فى ادراج اسمائهم فى طبقة رجال الجمنازيوم حتى انه فى احدى هذه الوثائق الخمس (١) - التى يرجع تاريخها الى وقت متأخر نسبيا هو عام ٢٦٠م نجد مقدم الطلب يتتبع - فى سياق لا يخلو من نغمة الفخر - توارث هذا الحق فى الاسرة عبر سبعة أجيال ابتداء من الوقت الذى سجل فيه الجد الاكبر فى عداد الطبقة فى عام ٤ـ٥م

ثانيا : فى بعض وثائق البهنسا (اوكسيرنيخوس) (٢) التى وصلتنا سليمة فى موضع اثبات المسوغا لا نجد ذكرا لتسجيل عام ٤ـ٥م ، وانما ارجع أصحاب الطلبات بداية عضويتهم فى الطبقة الى تواريخ لاحقة تقع بين هذا العام المذكور وعام ٧٢ـ٧٣م الذى يبدو أن سجلات العضوية الجديدة فى الطبقة قد أغلقت فيه نهائيا (٣) - وازاء ما نعلم من وقوف الحكومة الرومانية فى وجه أى محاولة لاختراق صفوف هذه الطبقة من خارجها فنحن نقدر أن منح العضوية فى الفترة الزمنية المذكورة (٤/٥م - ٧٣/٧٢م) جاء عن طريق سلطة عليا مثل والى مصر أن لم يكن الامبراطور الرومانى نفسه .

فاما عام ٤ـ٥م فان هناك من الشواهد ما يفيد ان اجراءات بعينها قد تمت فيه بقصد ترتيب السكان ترتيبا اجتماعيا (٤) . ولربما تم فى ذلك العام تحديد كافة الفئات الممتازة وتعيين شروط التمتع بامتياز بذاته اقتصاديا كان ام اجتماعيا . ومعلوم ان الامبراطور اوغسطس كان صاحب سياسة اصطفاء ارستقراطيات معتدلة فى كل الولايات لتكون عونا للادارة الرومانية فى كل ولاية .. ولعله بعد انقضاء نيف وثلاثين سنة من ممارسة الحكم فى ولاية مصر توصل اوغسطس الى فكر محدد بخصوص معايير انتقاء هذه الارستقراطية هناك . غير أننا للاسف لانعلم من الوثائق شيئا عن هذه المعايير . واذا كنا نتصور ان اوغسطس فى تحديده لأفراد فئة مواطنى

---

(1) P.Oxy. 2186.

(2) P. Oxy. 1266; 3276 - 3284.

(3) N. Lewis, Life in Egypt under Roman Rule, PP. 41-2.

(4) Bell, Egypt under the Early Principate, C.A.H. Vol.X, P. 299.

عواصم الاقاليم المعفيين اعفاء جزئيا من ضريبة الرأس قد استخدم مبدأ الاختيار على أساس " الوضع القائم على علاته ـــــــــ Status quo وأعنى الوضع الاجتماعى ودرجة الثراء والمقدار المكتسب من الثقافة الاغريقية بغض النظر عن نقاء الدم الاغريقى او اختلاطه ، فما عساه أن يكون المبدأ الاكثر خصوصية الذى استخدمه لانتقاء طبقة " رجال الجمنازيوم" وهى النخبة التى أراد أن يقصر عليها تولى الوظائف البلدية المحلية ἀρχαί بل ويعهد اليها ببعض الوظائف التى تمثل السلطة المركزية على مستوى الاقليم بما فيها أرفع هذه الوظائف وهى الاقليم ؟

وفى محاولة الرعيل الاول من الدارسين للاجابة عن هذا السوءال ظهر اتجاه البعض الى القول بأن رجال الجمنازيوم قد تم اختيارهم على أساس أنهم سلالة اولئك الذين تولوا وظيفة مدير الجمنازيوم (الجمنازيارخوس) فى سالف الايام • وكانت أسر هوءلاء تؤلف ما يشبه" النبالة " فى مجتمعات الاغريق فى عواصم الاقاليم • لكن هوءلاء الدارسين عدلوا عن رأيهم بعد أن نشر مزيد من الوثائق التى أظهرت ضرورة أن يتسع المعنى أكثر من ذلك ليدل على الرجال الذين ينتمون الى الجمنازيوم بمعنى الذين تلقوا تعليمهم فى الجنازيوم بمقتضى حق معلوم لهم فى ذلك (١) ومقصور عليهم وحدهم • لكنه ازاء خلو الوثائق من قرينة تعين على تحديد أساس اختيار هوءلاء الرجال فى عام ٤-٥م ، لم يكن أمام الدارسين سوى التخمين أو الترجيح ونحن نضيف بدورنا ترجيحا قد يظهر فى الوثائق فيما بعد ما يؤيده ، وهو أن ما استرشد به أوغسطس فى اختيار رجال الجمنازيوم كان المبدأ نفسه الذى طبقه فى اختيار طبقة " المستوطنين " κάτοικοι فى اقليم أرسينوى (الفيوم)• ولتوضيح وجهة نظرنا نذكر أن العلامة بيكرمان

---

(١) قال بالرأى الاول جرنفل وهنت فى عام ١٨٩٩ عند نشرهما لبردية البهنسا رقم ٢٥٧ ، انظر : The Oxyrhynchus Papyri Vol. 11, P. 219 لكنهما بعد دراسات كل من چوجيه La Vie Maniciale PP. 79-80 وفيلكن (Grandzüge, P. 199) تبنيا الرأى الثانى واقراه فى تعليقاتهما على وثائق الفحص • قارن The Oxy. Pap; xii: P, 161.

قد أثبت منذ أكثر من خمسين عاما (١) أن الجماعة التى يرد ذكرها فى وثائق هذا الاقليم فى العصر البطلمى تحت اسم جماعة " الستة الاف وأربعمائة وخمسة وسبعون رجلا هيلينيا فى اقليم أرسينوى)" :

« οἱ ἐν Ἀρσινοείτῃ ἄνδρες Ἕλληνες ϛυοε (= ἑξακισχίλοι ἑβδομήκοντα πέντε) »

هى نفسها الطبقة التى ترد فى الوثائق باسم " المستوطنين " . وقد أصبح رأى بيكرمان يلقى بعد ذلك قبولا عاما لدى الدارسين الذين اتجهوا الى اعتبار هؤلاء المستوطنين فى العصر الرومانى طبقة متميزة عن فئة مواطنى عواصم الاقاليم οἱ μητροπόλιται فى اقليم ارسينوى. وفضلا عن ذلك فإزاء ما لوحظ من عدم ورود ذكر طبقة " رجال الجمنازيوم " فى هذا الاقليم ، وعدم امكان ارجاع ذلك الى نقص وثائق ارسينوى (فمعلوم ان هذا الاقليم هو أجود اقاليم مصر بالوثائق) ، ولا الى اختلاف النظم المحلية بسبب تباعد الاماكن (فارسينوى ليست بالبعيدة عن اوكسيرنخوس وهرموبوليس وهيراكليوبوليس) ، ونظرا لما يوحى بها هذا الرقم المحدد (٦٤٧٥) من اشارة الى فئة مغلقة تم احصاء أفرادها عدا ، فان آراء الباحثين قد اتجهت الى اعتبار هذه الطبقة فى ارسينوى معادلة لطبقة رجال الجمنازيوم فى سائر الاقاليم الاخرى (٢) والى أن اختيار طبقة الـ ٦٤٧٥ هيلينى فى ارسينوى جرى على الارجح فى ذات الوقت الذى حدد فيه أعضاء طبقة رجال الجمنازيوم (٣) .

وازاء وضع طبقة " المستوطنين" على هذا النحو صنوا موازيا لطبقة رجال الجمنازيوم فى الاقاليم الاخرى من حيث وضعها الاجتماعى وامتيازها الاقتصادى بل من حيث الوقت

---

(١) Cf. Bickermann, Archiv. IX PP. 42 f.

(٢) عن مناقشة رأى بيكرمان وما انتهت اليه آراء الباحثين بشأن المستوطنين فى ارسينوى انظر :

El-Kady, The Epikisis in Roman Egypt, PP. 117-118.

(3) CF. N. Lewis Op. Cit., PP. 40-41.

الذى جرى اختيار اعضائها عنده،لا نجد غضاضة فى افتراض تساوى معيار الاختيار ، ونحن نحس انه فى اختيار الرومان لطبقة مستوطنى ارسينوى ان اعينهم كانت مركزة على سلالة المقدونيين والاغريق من جنود البطالمة الاوائل الذين منحوا اقطاعات لقاء خدماتهم العسكرية ، وهى اقطاعات اكتسبت حيازتها بمرور الوقت ورغم منافاة القانون وضع الانتقال بالوراثة من خلال متابعة الابناء لمسيرة آبائهم فى الخدمة فى الجيش البطلمى • وقد اعتبر الرومان من وجدوه حائزا لاقطاع عسكرى سليلا للمقدونيين او الاغريق الأول الذين قدر الرومان لهم دورهم فى بناء الدولة البطلمية فاتجهوا اليهم ، ومناط الاهتمام بهم الصفة العسكرية المتوارثة المثيرة لقدر بعينه من الاحترام ، والمنطوية فى الوقت نفسه على احتمال اكبر لدرجة أعلى من نقاء الدم الاغريقى (١) • فاذا اخذنا فى الاعتبار طبيعة هذا التفكير الرومانى بالنسبة الى طبقة المستوطنين فى الفيوم ، اتجه نظر الباحث فيما يتعلق بمعيار الاختيار لطبقة رجال الجمنازيوم الى جماعات النيانسكوى νεανίσκοι التى تصادفها فى وثائق العصر البطلمى والتى سبق أن اشرنا اليها فى موضع سابق عند حديثنا عن الجمنازيوم فى ذلك العصر ، وحددنا صفتها الاساسية ، وهى تخرجها فى معهد الجمنازيوم والتصاقها على نحو خاص بهذه الموءسسة بعد تخرجها فيها حيث يبدو ان فريقا من افرادها كان يشارك مديرها (الجمنازيارخوس) فى ادارتها ، وفضلا عن ذلك كله علاقة هذه الجماعات الوثيقة بالجيش البطلمى • ومن هنا كان افتراضنا هذا الافتراض ، وهو ان الرومان فى تحديدهم لطبقة رجال الجمنازيوم كان لابد وأن يلتفتوا الى هذه الجماعات •

وتبقى فى الحديث نقطة تتعلق بالامتيازات الخاصة التى تمتع بها رجال الجمنازيوم على نحو ميزهم عن فئة مواطنى عواصم الاقاليم الذين اقتصرت امتيازاتهم على الاعفاء الجزئى من ضريبة الرأس • وقد كان طبيعيا أن ينصرف تفكير الباحثين عند بداية الدراسات البردية الى أن أعضاء هذه الطبقة كانوا يتمتعون باعفاء كامل من هذه الضريبة ،

---

(١) فرق الرومان فى هذا بين فريقين : الكاتويكوى الذين كانوا محل اعتبارهم وفريق آخر كان يحمل اسم الكليروخوى κληροῦχοι الذين كانوا يتألفون من حائزى اقطاعات عسكرية من عناصر غير اغريقية او مقدونية خدمت فى الجيش البطلمى بما فى ذلك المصريون •

هكذا ظن لسكييه مثلا[1] . لكن لم تلبث ان نشرت وثائق وردت فيها مصطلحات مثل : « ἀπὸ γυμνασίου δωδεκάδραχμος » في اوكسيرنخوس أو « ἀπὸ γυμνασίου ὀκτάδραχμος » في هرموبوليس فأشارت الى ان رجال الجمنازيوم[2] كانوا يدفعون الضريبة بمعدلها المنخفض تماما مثل فئة مواطني عواصم الاقاليم . ومع توالي نشر الوثائق تبين أن امتياز الطبقة ان اجتماعيا في المقام الاول . وان ما كان يميزهم حقيقة هو أنهم وحدهم أصحاب الحق في تلقي التعليم الاغريقي بالجمنازيوم ، وهو أمر أصبح في العصر الروماني علامة على الامتياز الاجتماعي لانه أصبح متطلبا ضروريا لترشيح الفرد لتولي وظيفة من الوظائف البلدية المحلية ἀρχαί أو حتى من الوظائف الحكومية الاخرى المرموقة على مستوى ادارة الاقليم المحلية ، وكانت هذه وتلك جميعا تجتذب اليها الطامحين الى السلطة والجاه ويسعى اليها طالبو المجد والشهرة وذلك في أوائل العصر الروماني ، أي قبل أن تتحول هذه الوظائف مع تدهور أحوال مصر الاقتصادية وانهيار الطبقة الوسطى الى مغارم وأعباء على نحو ما هو معروف .

هكذا سعى الرومان الى خلق طبقة " رجال الجمنازيوم " تحقيقا لهدف عملي هو التخفف من أعباء الحكم في مصر . ذلك أنهم توسموا في فئة بعينها قدرة وكفاءة للاضطلاع ببعض المهام الادارية على مستوى الادارة المحلية ، فأرادوا القاء هذه الاعباء على كاهلها فكان ان اعطوها وضع الطبقة الاجتماعية ، وغذوا في افرادها شعور التميز بأنهم صفوة من صفوة واتخذوا من جانبهم التدابير والاحتياطات لكي تظل هذه الطبقة في دائرة ضيقة مغلقة .

والواقع ان ما رأيناه من تشدد الرومان لمنع اختراق صفوف هذه الطبقة من خارجها ليس الا جزءا من سياسة اجتماعية عامة اتصفت بقدر كبير من الجمود ولم تكن خالية

---

(1) Lesquier, L'armée Romaine de L'Egypte, La Caire, 1918, P.195.

(٢) لعل من قبيل المصادفة ما وقع من الظن في بداية الامر بأن طبقة المستوطنين في أرسينوى كانت معفاة اعفاء كاملا من دفع ضريبة الرأس :

Cf. Wilcken, Ostraca, (=W.O.) Vol 1, P. 240; Kenyon, P. lond. 11, PP. 42 F., Meautis, Hermopolis- La- Grande, P. 71.

وذلك قبل أن يثبت والاس أن هؤلاء المستوطنين دفعوها بمعدلها المنخفض :

Wallace, Taxation in Egypt, PP. 117-119.

من التأثر بالمبدأ الرومانى الشهير : "فرق تسد" divide et impera. ولعل الدليل الاكبر على جمود السياسة الاجتماعية الرومانية وتشددها تلك الوثيقة المعروفة باسم P. Gnomon ، والتى تتضمن القوانين واللوائح التنفيذية لاحدى دوائر الحكم المهمة فى مصر فى ذلك العصر وهى مايعرف بادارة " الحساب الخاص" ἴδιος λόγος . فهذه الوثيقة لا تدع لدى دارسها اى شك فى أن أهداف اوغسطس وخلفائه من بعده على مدى قرنين من الزمان كانت تجميد الاوضاع الطبقية فى مصر ووقف ما يسمى عند علماء الاجتماع بالحراك الاجتماعى من خلال وضع قوانين صارمة تبقى كل طبقة بمعزل عن الاخرى، ويكفى ان يستعرض المرء بعض بنود مختارة من هذه الوثيقة المهمة فيما بين الثامن والبند السادس والخمسين ليتبين المدى الذى بلغته السياسة الرومانية فى هذا المجال. وهناك فى المادة السادسة والأربعين مثل صارخ على حظر الزواج بين فئتين لايبدو لنا بينهما الا الحد الادنى من الفوارق الاجتماعية حتى من وجهة نظر القانون الرومانى على ما فيه من جور فى هذا المجال واعنى فئة " المعتقين" الاسكندريين والنساء المصريات .

ومن المفهوم ان وقف الحراك الاجتماعى فى داخل اى مجتمع لايمكن أن يكون فى صالح هذا المجتمع ، لكنها السياسة الرومانية بنظرتها الضيقة التى لم تضع فى دائرة اهتمام الرومان الا تحقيق اهدافهم الاقتصادية من مصر . ولا شك أن الرومان مضوا فى سياستهم الاجتماعية هذه الى أبعد مما ذهب أسلافهم البطالمة . حقا ان هؤلاء اوجدوا بين العنصرين الاغريقى والوطنى فجوة اجتماعية لكن لم توجد فى عصرهم مثل هذه القوانين الصارمة التى تحظر الزواج بين الفريقين على اطلاقه وعمومه. ولربما ادت السياسة الرومانية الى تقوية العنصر الاغريقى او المتأغرق فى مصر وانعاش شعور التميز والامتياز بل الاستعلاء بين تلك الاوساط ، حتى وجدنا اغريقيا فى القرن الثالث الميلادى (ولعله ان يكون متأغرقا) يكتب فى رسالة الى اصدقاء او اخوة له قائلا فى اسلوب استنكارى " لربما حسبتمونى يا اخوتى باربارا او مصريا غير إنسى"! (١) واذا كانت هذه النتيجة فى صالح

(!) P. Oxy. 1681, 11. 407: " ἴσως με νομίζετε, ἀδελφοί, βαρβαρόν τινα ἢ Αἰγύπτιον ἀναναθρωπον εἶναι ".

الحكم الرومانى حسبما تصورا فانها بالقطع كانت تعطل تطور المجتمع المصرى تحت حكمهم • بل انه فى أوساط الجماعات الاغريقيةنجد ثمرة مرة هى من الاثار الجانبية السيئة لهذه السياسة ، ونعنى بها انتشار عادة الزواج بين الاخوة بما تنطوى عليه من جراثيم العلل • وقد بات لدينا الانَ عديد منالادلة على شيوع هذه العادة بين اغريق مصر فى العصر الرومانى بشكل فاق كثيرا ماكانالامر عليه فى العصر البطلمى ، ونجد الامثلة وافرة فى وثائق عملية الاحصاء وفحص المستندات وعقود الزواج واشهار الميلاد والدعوات الى الولائم وما الى ذلك(١)• وفيما يخص طبقة رجال الجمنازيوم التى يفترض انها اكثر الجماعاتالاغريقيةفىالاقاليم مصر وعيا بتميزها نذكر احدى وثائق عملية فحص المستندات(٢) - وترجع الىأواسط القرن الثانى الميلادى ، ونرى فيها أسرة اغريقية لا تخطىءالعين احساسها بالكبرياء وهى ترجع نسبها الى أرومة اغريقية منذ بداية حكم اوغسطس ان لم يكن قبله ، ويمارس افرادها عادة زواج الاشقاء على مدى ثلاثة أجيال متوالية • ومهما ذكر من اسباب شتى لتفسير انتشار هذه العادة بين اغريق مصرفى الاقاليم فى العصر الرومانى فان سياسة الرومان الاجتماعية المتشددة تبدو لنا اقوى هذه الاسباب •

---

(1) N. Lewis, Op. Cit., PP 43-44.

(2) P. Amh. 75.